رحلات الحج وآثارها الاجتماعية والاقتصادية في سودان وادي النيل

الأمين أبومنقة محمد

مقدمة:

ارتبطت هجرات مسلمي غرب إفريقيا إلى سودان وادي النيل واستقرارهم فيه بمفهومهم لـ"الشرق" (بالهوسا gabas – مأخوذة من "القبس" الذي يصاحب شروق الشمس) باعتباره اتجاهاً لمهبط الوحي والكعبة المشرَّفة. كما أنه الاتجاه الذي توجد فيه بقية الأماكن المقدسة كالمدينة المنورة حيث قبر الرسول عليه الصلاة والسلام وبيت المقدس الشريف. وزيادة على ذلك هناك في الشرق يوجد الموقع الذي ينتظر فيه ظهور المهدي عليه السلام. لذلك فغاية أمنية كل مسلم في غرب إفريقيا أن يصل الأراضي المقدسة ولو مرة واحدة قبل مفارقته الدنيا.

لقد دأب مسلمو غرب إفريقيا على ركوب الصعاب وارتياد الطرق المؤدية إلى الأراضي المقدسة منذ وصول الإسلام إلى تلك البقاع، وذلك إما عبر الصحراء الكبرى عن طريق فزان إلى مصر ثم الحجاز، أو عن طريق المحيط الأطلسي عبر بلاد المغرب فمصر فالحجاز، أو عبر حزام السافنا إلى بلاد هوسا وتشاد والسودان فالحجاز. ويفعلون ذلك على الرغم من الفتاوى التي أخرجها بعض علماء الأندلس وعلماء الطريقة القادرية في تمبكتو (سيدي المختار الكنتي)[1] وصكتو (الشيخ محمد بلو بن عثمان

(١) انظر مؤلَّف ابنه محمد بن المختار الكنتي، "كتاب الطرائف والتلائد"، مخطوط بمركز الوثائق بجامعة إبادان، رقم MS 82/398.

بن فودي)[٢] في أن شرط "الاستطاعة" ينتفي عن مسلمي غرب إفريقيا نظراً لطول المسافة ووعورة الطريق ومخاطر أخرى قد تؤدي إلى التهلكة. وبالنسبة لعلماء الخلافة الصكتية على وجه الخصوص فهؤلاء قد حكموا أن الجهاد لإعلاء كلمة الله أكثر مثوبة عند الله عشرات المرات من أداء فريضة الحج. ولكن كل هذا لم يغيّر كثيراً مما رسخ في أذهان مسلمي غرب إفريقيا فيما يتصل بمفهوم "الشرق". وسوف نحاول في هذا المقال استعراض أسباب ودوافع توجُّه مسلمي غرب إفريقيا نحو الشرق والآثار الاجتماعية والاقتصادية التي ترتبت على هذه الرحلات والهجرات في سودان وادي النيل. مع علمي بصعوبة استيفاء كل الموضوعات المطروحة في هذا المقال ما تستحقه من تفصيل، إلا أنني فضلت أولاً ربط هذه الموضوعات بعضها ببعض، على أن أقوم لاحقاً بتناول كل موضوع على حدة ومحاولة سبر غوره ما استطعت إلى ذلك سبيلاً.

أسباب ودوافع التوجه نحو الشرق:

صحيح أن كل من عقد العزم للاتجاه نحو الشرق كان بنية الحج، ولكن هناك أيضاً دوافع أخرى كثيرة تدخل في إطار ما يمكن الإشارة إليه بعبارة "ما وراء الحج"، إذ لم يكن السفر إلى الحج في بعض الأحيان أداءً للفريضة في حد ذاتها بقدر ما كان طلباً للمغفرة لذنب عظيم اغترف. وفيما يلي نورد بإيجاز أهم هذه الأسباب والدوافع.

أ- دوافع شخصية: طلب المغفرة عن ذنب

لعل من أقدم وأشهر قوافل الحج التي دونها تاريخ غرب إفريقيا، قافلتي كل من مانسا موسى أشهر أباطرة إمبراطورية مالي (حوالي ١١٠٠-١٧٥٤)، وأسكيا

(٢) انظر محمد بلو بن عثمان بن فودي، تنبيه الراقد لما يعتور الحاج من المفاسد، طبعة محلية.

محمد أشهر أباطرة إمبراطورية صنغي (١٤٧٣-١٥٩١). ولا نعرف كثيراً عن دوافع وأسباب القافلة الأسطورية[٣] التي حج على رأسها الإمبراطور مانسا موسى، ولكن يقال إن أسكيا محمد قد ذهب في حجه الشهير ليستغفر عن ذنبه في قتله العالم سُنِّي علي. وكذلك قيل إن أسكيا داؤد نُصح بالذهاب إلى الحج ليستغفر عما اقترف من ذنب في اغتياله عالماً من الأشراف. وعندما لم يتمكن من ذلك استعاض عنه بتقديم كميات كبيرة من الصدقات للفقراء. وربما قد حدث أن امتد مفهوم "الاستغفار" هذا حتى إلى غير المسلمين من سكان تلك الأقاليم. فهناك أسطورة تقول إن زعيماً يدعى مكانتا جيقوي، وهو وثني، مارس الفاحشة مع والدته، لذلك قرر معاقبة نفسه بالسفر إلى مكة.[٤]

ب- دوافع سياسية-دينية

وكذلك كثيراً ما يُتخذ الذهاب إلى مكة ذريعة يتذرَّع بها العلماء لترك بلادهم عند خلافهم مع الحكام الطغاة. فعندما يبلغ جور الحاكم وطغيانه وظلمه تجاه الرعية حداً يعجز العالم تحمله مع عجزه عن تقويمه، يقرر العالم ترك أرض ذلك الحاكم ولسان حاله يقول إن أرض الله واسعة، ويتجه شرقاً بنية الحج. فالحاكم باستطاعته معاقبة العالم لخروجه عن طاعته، بينما لا يستطيع بأيِّ حال من الأحوال منعه الذهاب لأداء فريضة الحج.

(٣) اختلف المؤرخون حول حجم قافلة مانسا موسى: ٨,٠٠٠ فرداً عند السعدي ١٥,٠٠٠ عند دحلان و٦٠,٠٠٠ عند الكعتي. انظر: عبدالرحمن السعدي (١٩٦٤)، تاريخ السودان، ترجمة وتحقيق هوداس، باريس؛ أحمد بن زيني دحلان (١٣٠٥هـ)، خلاصة الكلام في ذكر أمراء البلد الحرام، القاهرة، ص ٣٠؛ محمود الكعتي (١٩٦٤) تاريخ الفتاش، ترجمة وتحقيق هوداس ودولافوس، باريس.

(٤) U. Al-Naqar (1972) *The Pilgrimage Tradition in West Africa*. Khartoum: Khartoum University Press, p. 131.

وقد يتوجه القادة السياسيون الدينيون إلى مكة المكرمة بحثاً عن السلوى والملاذ الروحي الآمن عندما لا تروق لهم مجريات الأحداث في بلادهم، وخير مثال لذلك خروج الشيخ عبدالله بن فودي من صكتو قاصداً الحجاز لعدم رضاه عن تصرفات بعض قادة الجهاد. والشيخ عبدالله بن فودي هو الشقيق الأصغر للشيخ عثمان بن فودي قائد حركة جهاد بلاد هوسا (١٨٠٤-١٨٠٨) ووزيره الأول الذي قاد معظم معارك وغزوات الجهاد. وهو عالم غزير العلم ومتعمق فيه، ويصفه الذين ترجموا له بأنه – على عكس شقيقه الشيخ عثمان – يميل إلى التشدد في التطبيق ولا يتجاوز عن الصغائر. فعندما كان الجهاد في أشده اتخذ قراراً بإبعاد نفسه عن الحركة والهجرة إلى مكة نتيجة لاستيائه من ميول بعض رفقائه التي تتنافى مع الأهداف الأساسية للحركة، ومن ذلك ميلهم إلى الدنيا والتنافس في ملكها وأموالها وجاهها مع تركهم عمارة المساجد والمدارس وغير ذلك. وقد اختلف مع شقيقه حيث رآه متساهلاً أكثر مما يلزم، بينما كان شقيقه (قائد الحركة) يرى أن الظروف المرحلية تقتضي تجاوز بعض الصغائر. على أية حال، لم يُترك الشيخ عبدالله ليواصل رحلته إلى الحجاز، إذ استوقِف في كنو – ويقال بإيعاز من شقيقه الشيخ عثمان – وطلب منه الإعانة في توطيد دعائم الدولة الإسلامية هناك. وبعد فراغه من مهامه راجع نفسه وقفل عائداً إلى صكتو لمواصلة الجهاد.[٥]

ج- دوافع روحية: تهيئة النفس للجهاد

وهذا الدافع، رغم عدم تواتره، لكن له من الأهمية عند مسلمي غرب إفريقيا بحيث يصعب إغفاله، وخير مثال له رحلة الحج الأخيرة للحاج عمر الفوتي (عمر تال) التي قام بها بغرض تهيئة النفس للقيام بحركة إصلاح في بلاده.

(٥) انظر عبدالله بن فودي، تزيين الورقات بما لي من الأبيات (ديوان شعر)، طبعة محلية.

ويأتي الحاج عمر الفوتي في المرتبة الثانية من حيث الأهمية في سلك الطريقة التجانية في إفريقيا بعد مؤسسها الشيخ أحمد التجاني. وقد تحرك عمر الفوتي من سيغو في بلاد فوتا (مالي الحالية) في عامي ١٨٢٧/١٨٢٨ وسافر عبر صكتو وبرنو ثم شمالاً عبر فزَّان إلى القاهرة، حيث قابل عدداً كبيراً من مشاهير علماء القاهرة في ذلك الوقت الذين أعجبوا بذكائه وسعة علمه. ثم واصل بعد ذلك إلى الأراضي المقدسة، وكانت أمنيته عند وصوله إلى مكة المكرمة مقابلة الشيخ محمد الغالي، الشيخ الأول للطريقة التجانية في الأراضي المقدسة. وقد قابله بالفعل وأدى معه فريضة الحج ولازمه إلى المدينة المنورة وجدَّد الطريقة عنده ونال إجازة منه. وعاد بعد ذلك إلى بلاده في عام ١٨٣٨ وأعلن فيها الجهاد.[٦]

د- دوافع عقائدية

١- الهجرة لملاقاة المهدي المنتظر:

لعل من أكبر التحركات السكانية التي شهدتها غرب إفريقيا من منتصف القرن التاسع عشر حتى نهايته تلك الهجرات ذات الصبغة المهدوية، والتي اتجهت كلها نحو الشرق، إما لأداء فريضة الحج وانتظار ظهور المهدي المنتظر، كما في حالة هجرة إبراهيم شريف الدين أبوشعر وهجرة ياموسي، أو للاقتراب من الموقع الذي ينتظر فيه ظهور المهدي وتهيئة الطريق لمواصلة الرحلة لمبايعته عند ظهوره، كما في هجرة الشيخ حياةُ بن سعيد، حفيد الشيخ عثمان بن فودي.

لقد تزامن ظهور الشيخ عثمان بن فودي وبداية حركته التجديدية في بلاد هوسا (شمال نيجيريا وجنوب النيجر الحاليتين) مع التاريخ الذي حُدِّد لظهور

(٦) في كل ما ورد حول الحاج عمر الفوتي انظر U. Al-Naqar, *op.cit.*, pp. 119-123.

المهدي المنتظر. لذلك أخذ الناس يعتقدون أنه هو المهدي المنتظر، مما دعاه إلى الكتابة بإسهاب (باللغة العربية وفي قصائده باللغة الفولانية) ينفي أنه المهدي، ولكن أشار بأنه جاء مبشراً بقرب ظهوره. كما أشار إلى أن موضع ظهوره سيكون إلى الشرق من بلاد هوسا ناحية "بحر النيل"، وربما في الحجاز، وأهاب بجماعته بالهجرة زرافات ووحداناً لنصرة المهدي فور ظهوره، لأنه عند ذلك لا سلطان لبشر في الأرض سوى سلطانه. وهذا ما نجده صراحة في خطاب أمير المؤمنين محمد بلو بن عثمان بن فودي لمودبو آدم، أمير آداماوا (على الحدود الشرقية للخلافة) يحثه فيه على تأمين الطريق المؤدي إلى الشرق: "فإن شيخنا رضي الله عنه أشار لنا بأن جماعته تنتقل إلى تلك النواحي عند قرب ظهور المهدي هناك يتبعون إليه ويبايعونه إن شاء الله".[٧] وفي نفس هذا السياق كتب أمير المؤمنين أبوبكر العتيق بن عثمان بن فودي إلى جماعة غواندو (عاصمة القسم الغربي للخلافة) يعلمهم بوصية والده حول انتقال أهل بلاد هوسا إلى النيل والحجاز:

> "... ومما أخبرنا به الشيخ هو أن جماعته أهل الرباط هم الذين ينتقلون إلى بحر النيل وإلى بلاد الحجاز، هم بعينهم أو ذريتهم، وهم بقية أمراء الشيخ وفيها نوره وبركاته وهم يجتمعون بالإمام المهدي ويبايعونه ومعهم رايات الشيخ.."[٨]

(٧) نقلاً عن عمر النقر (١٩٧٠) "الجذور العقائدية والتاريخية لهجرة مي ورنو إلى السودان"، مجلة الدراسات السودانية، ع ١، م ٢، ص ١٠٨.

(٨) مخطوط بمركز الدراسات الإسلامية، جامعة عثمان دانفوديو صكتو، لدى كاتب المقال صورة منه.

وقد ذهبت الأم مريم بنت الشيخ عثمان إلى أبعد من ذلك وبينت الطريق الذي تتبعه الهجرة ومعالمه الجغرافية المهمة من مدن وجبال وأنهار، حسب ما أسرَّ لها والدها.[٩]

فمن أولى الهجرات الهامة ذات الصبغة المهدوية، هجرة الشيخ إبراهيم شريف الدين الملقب بأبي دبابة أبوشعر. وقد ورد في الأثر أنه أحد الأئمة الثلاثة الذين يهيئون الناس لظهور المهدي. ويقال إنه تحرك بجماعة كبيرة من أقاصي بلاد فوطا (السنغال – مالي) قاصداً الحج وانتظار ظهور المهدي – فأخذ المسلمون ينضمون إليه في كل بلد يمر به، إلى أن وصل بلاد هوسا، وواصل طريقه ماراً ببرنو عام ١٨٥٦. وقد سببت هذه القافلة إزعاجاً لكل من كنو وصكتو وبرنو، إذ يترتب عليها هجرة أعداد كبيرة من السكان وإخلاء البلاد من سكانها، ولكن رغم ذلك تركوه يمر بسلامة. ورغم مقتله داخل الأراضي التشادية قبل بلوغه مبتغاه، إلا أن عدداً من جماعته تمكن من الوصول إلى مكة المكرمة، وقيل إن بعضهم كرَّ عائداً من الأراضي المقدسة واستقرَّ على النيل في السودان لانتظار ظهور المهدي.[١٠]

غير أن أهم الهجرات المهدوية ذات الصلة المباشرة بالحركة المهدية في السودان هي هجرة الشيخ حياةُ بن سعيد بن محمد بلو بن الشيخ عثمان بن فودي، الذي قُدِّر له أن يكون ذلك الحفيد الذي يحمل نور جده وبركاته ليبايع المهدي المنتظر ويرفع راية الجهاد باسمه، وإن لم يُكتب له اللقاء معه.

(٩) لدى كاتب هذا المقال صورة من هذا المخطوط. لتفاصيل أوفى حول آثار الشيخ عثمان بن فودي على الحركة المهدية في السودان انظر يوسف فضل حسن (٢٠٠٧): حواشٍ على متون، الخرطوم: دار سوداتك، الصفحات ٤٣–٦٧.

(١٠) انظر: Alhaji Garba A. Sa'idu (1980) "(The) effect of Mahdism in West Africa", paper presented to the International Seminar on Muslim Movements, Bayero University Kano (unpubl.).

خرج الشيخ حياةُ في عام ١٨٧٨ مهاجراً مع نفر من تلامذته وأتباعه نحو الشرق بقصد الحج ولقاء المهدي الذي يعتقد قرب ظهوره. فنزل في منطقة خالية من السكان – على الحدود بين نيجيريا والكاميرون الحاليتين – تتوسط مجموعة من القبائل غير المسلمة، وأسس رباطاً فيها أسماه "بلدة" أخذ في توسعته وتطويره لحين ظهور المهدي. وفيه استقبل رسل المهدي (محمد أحمد بن عبدالله) عام ١٨٨٣ حاملين إليه رسالة بتعيينه عاملاً له "في الغروب من وداي إلى البحر المحيط مع آلة الإمارة جميعاً من لواء للنصر وجبة مرقعة وسيف وطاقية وخاتم طبع".[١١]

رغم أن الشيخ حياة لم يوفق في تلبية نداء المهدي للحاق به في طريقه إلى أم درمان والإعانة في تأسيس دولة المهدية – لأسباب يطول ذكرها – إلا أن جماعته تمكنوا من ذلك.

٢- الفرار بالدين من وجه الاستعمار النصراني:

يتمثل دافع الفرار بالدين من وجه الاستعمار النصراني في هجرة أمير المؤمنين الطاهر/مَيْ وُرْنو Mai-Wurno التي انطلقت من صكتو، عاصمة الخلافة الصكتية،[١٢] يوم ١٥ مارس ١٩٠٣ وانضمت إليها هجرات أخرى قادمة من أقاصي غرب إفريقيا، وهذه تعتبر أكبر هجرة شهدها التاريخ الإسلامي من حيث طول المسافة

(١١) في رسالة من الشيخ حياة إلى الأمير محمد صالح، سلطان برنو قدري، توجد نسخة منها بدار الوثائق، جامعة أحمد بيلو، زاريا.

(١٢) في مطلع القرن التاسع عشر قاد الشيخ عثمان بن فودي حركة تجديدية في بلاد هوسا (شمال نيجيريا وجنوب النيجر الحاليتين) تمكّن عبرها من إسقاط جميع ممالك الهوسا التي حكم بكفرها لممارسة سلاطينها وزعاماتها أعمالاً تنحدر لمستوى الشرك (مثل السحر وتقديس الأوثان)، ومن إقامة دولة إسلامية فيدرالية (بلغة العصر) تعتبر الأكبر مساحةً والأطول عمراً (مائة عام) في إفريقيا، عرفت فيما بعد بالخلافة الصكتية (١٨٠٤-١٩٠٣).

(حوالي ٣٠٠٠ ميل بين صكتو في شمال نيجيريا وقرية الشيخ طلحة على الضفة الغربية للنيل الأزرق، ١٥ كيلومتراً جنوب سنار) ومن حيث عدد المهاجرين المنضوين تحت رايتها (حوالي ٢٥,٠٠٠ شخصاً).[١٣] وقد قرَّر هؤلاء المهاجرون مفارقة أوطانهم فراراً بدينهم، كما أمر الله، بعد أن أصبحت أوطانهم تحت إمرة النصارى إبان دخول الاستعمار إلى هذه البلاد. وكان هدفهم مكة المكرمة حيث لا تخمد نار الإسلام إلى يوم الدين، وحيث سيلتقون بالمهدي وينتظرون قيام الساعة.

ففي مطلع عام ١٩٠٣ احتلت القوات البريطانية مدينة كنو ومنها أخذت تتقدم نحو صكتو عاصمة الخلافة. ففي جوٍّ كهذا أخذت فكرة ظهور المهدي ونهاية الدنيا والهجرة تطفح على السطح. ولما كانت الخلافة الصكتية دولة علماء أكثر منها دولة سياسيين، فقد تُرك الأمر للعلماء ليفتوا الساسة بالتصرف السليم الصحيح من وجهة نظر الإسلام. فأخرج القاضي عبدالله، قاضي قضاة الخلافة، فتوى وضَّح فيها الخيارات المتاحة من وجهة نظر الشرع: الحرب أو المهادنة أو الهجرة. وقد أثبت القاضي عبدالله عدم جدوى الخيارين الأولين في الظروف التي تجد فيها الخلافة نفسها في ذلك الوقت، وحكم بألا خيار لمسلمي الخلافة سوى الهجرة. غير أن بعض القادة السياسيين، أهمهم رجل الدولة القوي محمد مَيْ تُراري Mai Turare، شقيق أمير المؤمنين الطاهر الأول، تدخل مصرّاً على المقاومة. وأخيراً تم التوصل إلى حلول توفيقية على أن تتم الهجرة بعد العجز عن المقاومة.[١٤]

(١٣) M. Crowder (1968) *West Africa Under Colonial Rule*. Evanston: Northwestern University Press, p. 136.

(١٤) هذه الفتوى بعنوان "رسالة ونصيحة إلى المعاصرين المعتنين بما يدخلهم في زمرة المسلمين الناجين"، قوامها عشرون صفحة ذات الحجم ١٧×١١سم، وكل صفحة تحتوي على ١٨ سطراً في المتوسط، ولدى الكاتب صورة منها. حول هذه الفتوى والأحداث التي ترتبت عليها انظر الأمين أبومنقة محمد (١٩٨٩) "الجذور الفقهية لهجرة أمير المؤمنين الطاهر الأول من صكتو" ، مجلة دراسات إفريقية ، ع ٥.

سقطت صكتو في ١٥ مارس ١٩٠٣ فأعلن أمير المؤمنين الطاهر الأول الهجرة نحو الشرق. وفي ٢٧ يوليو من نفس العام وقعت المعركة الفاصلة في برمي واستشهد فيها الطاهر نفسه، فتسلم ابنه محمد بلو مَيْ وُرْنو راية الهجرة وواصل بها شرقاً حتى بلغ النيل الأزرق في السودان عام ١٩٠٦ وعبره ونزل في قرية الشيخ طلحة على بُعد ١٥ كيلو متراً جنوبي سنار. وفي العام التالي عبر المهاجرون إلى الضفة الغربية وأسسوا مدينة مايرنو الحالية.

وقد شهدت العقود الأولى من القرن العشرين عشرات الهجرات الفردية والجماعية من داخل السودان ومن غرب إفريقيا للحاق بمَيْ وُرْنو، كما خرجت هجرات فرعية من مايرنو تأسست منها عشرات القرى على ضفتي النيل الأزرق جنوباً حتى الحدود الأثيوبية، وتوجهت جماعات أخرى شرقاً لتستقر على ضفاف أنهار الدندر والرهد وعطبرة وسيتيت حتى الحدود الأثيوبية أيضاً.(١٥)

كل ما تقدم ذكره يُعنى بحج أو هجرة فئات خاصة من مسلمي غرب إفريقيا باعتبارها أحداثاً ذات خصوصية دَوَّنها التاريخ. ولكن ما لا يقل أهمية من ذلك رحلات العامة من المسلمين إلى الشرق بغرض الحج، وما يتصل بها من تنظيم القوافل ومحطات الاستراحة في الطريق والمخاطر التي تتعرض لها هذه القوافل أو المجموعات الصغيرة، من قسوة الطبيعة والحيوانات المتوحشة واللصوص والاختطاف بغرض الاسترقاق والأمراض وشح الزاد.. الخ. ويندرج كل هذا تحت مفهوم "الحج بمشقة" الذي يعتبر غاية أماني حجاج غرب إفريقيا بحسبانه أكثر مثوبة عند الله.

(١٥) لمزيد من التفاصيل حول هذه الهجرة انظر نفس المرجع السابق.

مسارات قوافل الحج عبر سودان وادي النيل:

خلال القرن التاسع عشر – أو حتى قبل ذلك – كانت قوافل الحج تتوجَّه من دارفور نحو النيل إلى موقع أم درمان الحالي، ومن هناك شمالاً بمحاذاة النيل حيث تمثل مدينة شندي أهم المراكز التجارية لحجاج غرب إفريقيا. ومنها عبر بلاد النوبة إلى أسيوط ثم تتجه شرقاً لعبور البحر المالح قبالة جدة. ومؤخراً تغير هذا الطريق حيث أخذ بعد عبور الأراضي التشادية يتبع بصورة عامة خطاً مستقيماً من الغرب إلى الشرق عبر الفاشر والنهود والأبيض وودمدني على النيل. ومنها يمكن للقوافل أن تتجه شمالاً إلى أم درمان/الخرطوم ثم بالبر إلى سواكن، أو شمال شرق عبر اريتريا إلى مصوع. ومن هذين الميناءين تحمل المراكب الحجاج مباشرة إلى جدة. وقد كانت المدن الواقعة على امتداد الطريق عبارة عن جزر مضيافة حيث تستجم القوافل ويعاد تشكيلها. وقد كانت الرغبة في الاستقرار في هذه المدن للعمل والتجارة – ولو بصورة مؤقتة – كبيرة، مما يعني زيادة كبيرة في الزمن الذي تستغرقه الرحلة. فعادة ما يحتاج الحاج المفرد إلى عامين كحد أدنى للوصول إلى مكة المكرمة، ولا يستبعد أن تستغرق رحلة الذهاب والعودة أكثر من عشر سنوات. والاستقرار المؤقت في الطريق قد يعني تأخيراً ربما يمتد من عدة أشهر إلى جيل كامل، وقد ينتهي الأمر بالاستقرار الدائم.

أثناء فترة المهدية في السودان انضم كثير من الحجاج إليها. وفي فترة السلطان علي دينار كان الحجاج يتفادون طريق الفاشر لأن السلطان قد دأب على استغلالهم لمصلحته الخاصة، بالأخص العلماء وأصحاب الأسرار منهم، حيث كان يجبرهم على خدمته من خلال أسرارهم ليتمكن في الأرض.[١٦]

(١٦) انظر A. Abu-Manga (1999) *Hausa in the Sudan: Process of Adaptation to Arabic*. Köln: Rüdiger Köppe, p. 9.

الزنقو Zango محطات استراحة الحجاج:

اعتقد أن الكلمة الهوسية "زنقو" zango مأخوذة من كلمة زنقة (أي الزقاق) المستخدمة في مدن شمال إفريقيا، بمعنى الطريق الضيق داخل المدينة. أما عند الهوسا فتعني محطة استراحة للحجاج. وهذه المحطات كانت تمتد على امتداد طريق الحج من ميدغري إلى سواكن وفيما بعد بورتسودان. وبما أن بقاء الحجاج في هذه المحطات ليس مقيَّداً بزمن محدَّد، إذ قد يمتد لسنين، فقد تحولت الآن كل هذه المحطات داخل الأراضي التشادية والسودانية إلى أحياء سكنية، بعد أن توقفت عملية الحج بالبر. ويرجع بعض المحطات (الزنقوهات) إلى أكثر من مائتي عام، وأشهرها كان في أبشي ونيالا والفاشر والأبيض وودمدني والخرطوم والقضارف وكسلا وبورتسودان. وقد تحولت كلها – كما أسلفنا إلى أحياء سكنية – واتخذت أسماء جديدة لا تعكس تاريخها ونشأتها كمحطات استراحة للحجاج، مثل حي أكتوبر (ديم بكر سابقاً) في القضارف، وغرب القاش (الذي خرج منه حي بانت) في كسلا، وحي الإنقاذ (ومايو) في الخرطوم، الخ. وتتميَّز كل هذه الأحياء قبل أن يعاد تخطيطها وتُوصَّل لها الخدمات، بكثافة السكان وضيق البيوت والحركة الدائبة من بيع وشراء، بالأخص المأكولات الشعبية، وأعمال مهنية كالحدادة ونسج الأسرَّة، والحلاقة وبيع الأدوية البلدية والأعشاب. والغالبية العظمى من سكانها تنحدر من غرب إفريقيا، بالأخص الهوسا. ومعظم السكان – رجالاً ونساءً وأطفالاً – يخرجون في الصباح الباكر لممارسة شتى الأعمال اليدوية البسيطة والشاقة وبيع الأطعمة والمنتجات المنزلية والخدمة في المنازل، ثم يعودون في نهاية اليوم.[١٧]

(١٧) لمزيد من التفاصيل حول مؤسسة الزنقو انظر دراسة ويركس لزنقو أبشي في شرقي تشاد، في J.A. Works (1976) *Pilgrims in a Strange Land: Hausa Communities in Chad*. New York: Colombia Univ. Press.

استقرار العلماء في طريق الحج/الهجرة:

١- العلماء الحجاج في حضرة سلاطين الفور:

كان من تقاليد سلطنة الفور (ووداي) سعي سلاطينها لإغراء العلماء المارين ببلادهم في طريقهم إلى الحج أو عائدين منه، وإغرائهم على الاستقرار في أرضهم لمساعدتهم في ترقية الأداء في أمور الدين والحكم. وكان يقاس نجاح السلطان وعظمة عصره بنجاحه في هذا الشأن. ومن العلماء الذين دوَّن لهم تاريخ مملكة دارفور، العالم الفولاني الفكي مالك الفوطاوي الذي تبوأ مرتبة عالية في بلاط السلطان عبدالرحمن الرشيد (١٧٨٥-١٨٠٣) وخليفته محمد الفضل (١٨٠٣-١٨٣٩). جاء والده، الفكي الأمين يوسف الفوطاوي، من بلاد فوطا (مالي) ماراً بدارفور في طريق عودته من الحج، وكان ذلك في عهد السلطان أحمد بكر. فاستوقفه السلطان أحمد بكر وأقنعه بالاستقرار وسلَّمه مهام القضاء والتعليم في المملكة، كما مُنح مساحة مقدَّرة من الأرض (الحواكير) ورُفعت عنه الضرائب وتم تزويجه من أسرة ذات شأن. وفي عهده تم فتح عدد كبير من الخلاوي، بالأخص في كتال وكريو. وكان المستشار الأول للسطان أحمد بكر ومن بعده السلطان دَوْرَ Daura إلى أن توفاه الله. وبعد وفاته تولى ابنه مالك إدارة هذه الخلاوي، وخُصِّصت خلوة كريو للأمراء وأبناء الوزراء والنبلاء، وكان يقوم الفكي مالك بالتدريس فيها بنفسه. وقد كان عبدالرحمن الرشيد تلميذاً عنده عندما كان والده (أي والد عبدالرحمن) على سرير الموت. وفي يوم من الأيام نادى الفكي مالك تلميذه عبدالرحمن الرشيد وطلب منه العودة إلى الفاشر لملازمة والده المريض، ولم يفهم التلميذ مغزى هذا الطلب إلا إنه أذعن له، شأن تلاميذ ذلك الزمان مع شيوخهم. ولم يمض وقت طويل حتى توفي السلطان، ووجدوا في عبدالرحمن الرشيد الذي كان حاضراً ويتمتع بقدر من العلم اكتسبه بملازمة شيخه الفكي مالك الفوطاوي، وجدوا فيه أنسب المرشحين من بين إخوانه لخلافة والده.

وما أن تم تنصيبه سلطاناً حتى أرسل لشيخه ووضعه في مرتبة أقرب مستشاريه ومعاونيه على الحكم. ورغم أن مالكاً لم يكن الوزير الأول، إلا إنه كان المسئول عن العلاقات الخارجية للسلطنة، ورئيساً لمجموعة من الوزراء، وكان يستلم الخراج من أكثر من ٥٠٠ إقطاعية في المملكة.[١٨] وعندما زار محمد بن عمر التونسي بلاط دارفور كان في ضيافة الفكي مالك الفوطاوي، وقد وصف وضعه فيه كما يلي:

"قام السلطان عبدالرحمن إبراهيم بترقية الفكي مالك الفوطاوي إلى مرتبة وزير، لأنه يؤمن بأنه رجل ذكي وحصيف وأمين. ويقال إن هذا الفكي كان عالماً بأسرار الكلمة وعلوم التنجيم. وعندما بلغ مرتبة الوزير أصبح صاحب سلطة على جميع الفولانيين الذين يعيشون في دارفور، ذلك لمكانته كواحد منهم. وقد كان بمثابة محاميهم ضد كل الآخرين أمام السلطان. وعندما ينشأ نزاع بينهم وبين آخرين من أعدائهم فإنه يقف دائماً مناصراً لأهله. وبهذه الطريقة جعلهم في الواقع خارج سلطة الدولة، وحتى بلغ الأمر حداً جعلهم في حِلٍّ من دفع الضرائب. وكذلك أصبحت قبيلتهم أكثر ثراءً ومهابة من بقية كل القبائل في دارفور".[١٩]

ويذكر التونسي أن "الفقيه مالك كان أعظم الوزراء من أولاد العرب".[٢٠] وفي موضع آخر يقول: "فدخلنا دار الفقيه مالك فوجدناه جالساً بين خدم وحشم وأرباب الحوائج محتفين به". ويذكر أيضاً: "فبقينا عند الفقيه مالك ثلاثة أيام ونحن في أكرم

(١٨) انظر محمد أحمد بدين (١٩٩٦)، الفلاتة الفولانيون في السودان، القاهرة: مركز الدراسات السودانية.

(١٩) محمد بن عمر التونسي (١٩٥٩)، تشحيذ الأذهان بسيرة بلاد العرب والسودان، تحقيق خليل محمود عساكر ومصطفى محمد مسعد، القاهرة، ص ١٢٥-١٢٦.

(٢٠) نفس المرجع، ص ٦٤.

ضيافة وألذ ائتناس".[٢١] ويصفه في مكان آخر بأنه "من أغنى أرباب الدولة، وكان له من الإقطاع ما ينيف عن خمسمائة بلد وذلك غير إقطاع إخوانه".[٢٢]

٢- استقرار العلماء الحجاج في وسط وشمال السودان (نماذج):

خلال القرن الثامن عشر (أو ربما قبل ذلك بكثير) كان طريق الحج – كما أسلفنا – يمر عبر شمال السودان عن طريق شندي شمالاً عبر بلاد الشايقية والدناقلة والمحس[٢٣] إلى أسيوط ثم شرقاً إلى البحر الأحمر للعبور إلى جدة. وهناك شواهد تؤكد أن بعض الفقهاء قد استضيفوا عند مشايخ عدد من قرى شمال السودان لينهل أهلها من علمهم، ولما كانوا يحملونه من المعارف في مجال الأسرار الروحانية والطبية. وجلَّ هؤلاء قد استقروا نهائياً في هذه المناطق وتناسلوا مع أهلها وكونوا عشائر ذات وزن ديني واجتماعي معتبر.[٢٤]

يحل الحاج ضيفاً على شيخ القرية ويستقبل بحفاوة ثم سرعان ما يبدأ في الوعظ والإرشاد، وربما فتح خلوة للصغار ومجلس علم للكبار. وعندما تطول إقامته نوعاً ما يعرض عليه الزواج أو يطلبه هو، وغالباً ما يتم تزويجه من إحدى الأسر

(٢١) نفس المرجع، ص ٦٤.

(٢٢) نفس المرجع، ص ١٢٥.

(٢٣) في حديثه عن مشائخ المحس يورد الطيب محمد الطيب اسم "الشيخ الفلاتي"، ويقول إنه قد عُرف في هذه المنطقة منذ تسعة أجيال. انظر الطيب محمد الطيب (١٩٩٩)، المسيد. دمشق: مؤسسة الصالحاني للطباعة، ص ١٦٣.

(٢٤) انظر نسب سليمان ودفلاتي: "سكنه الأصلي محطة نادي بجزيرة سبنس وقنديسي وله حلة ومسجد بقنديسي.. تناسل أبناؤه وعمروا بين الداخلة وكَنُّور...". انظر عبدالله عبدالماجد إبراهيم (٢٠٠٤)، الإعلام بالأعلام: مسيرة علماء السودان من تمبكتو إلى أم درمان، مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، ص ١٤٠-١٤٣، (مصدره: كتاب نسب بني سليمان، إعداد الماحي السبكي الطيب، لدى كاتب المقال صورة منه مهداة من المرحوم الأستاذ الطيب محمد الطيب).

العريقة في المنطقة باعتباره عالماً يحظى باحترام الجميع. وحتى ذلك الحين تكون نيته معقودة على العودة إلى بلاده. فينجب الطفل الأول مما يستوجب بقاءه لمدة أطول، ثم يأتي الطفل الثاني وربما الثالث، وفي كل مرة تتضاءل فكرة العودة، وهكذا إلى أن يصرف النظر عنها. ويقوم مثل هؤلاء العلماء في أماكن استقرارهم برعاية الواجبات الدينية والواجبات الاجتماعية ذات الطابع الديني، مثل إمامة الناس في الصلوات الخمس وصلاة الجمعة وصلاة العيدين والصلاة على الأموات ومراسم الدفن وتقسيم الميراث وعقد الزواج ومراسم العقيقة والطلاق والتوفيق بين الأزواج.

وتذكر الروايات الشفاهية حالات يجد فيها العالم امرأة مريضة فيقوم بعلاجها عن طريق الأسرار الروحانية فيزوجها أهلها له مكافأة له على ذلك. ويقال إن أحد العلماء الحجاج وجد امرأة مريضة تعاني من مرض نفسي أقعدها عن الحركة لفترة طويلة من الزمن لزمت فيها السرير، وقيل إنها كانت مصابة بالجنون. فطلب منه أهلها أن يعالجها. فسألهم "وهل ستزوجونها لي إذا عالجتها؟"، فأجابوا بنعم. فخاطبها قائلاً: "انهضي!" وفي الحين نهضت وذهب عنها الجنون إلى الأبد. فزوجها أهلها له وكوَّن معها أسرة كبيرة.[٢٥]

في مثل هذه الحالات ينشأ الأطفال الناتجون عن هذه الزيجات لا يعرفون شيئاً عن ذويهم من جهة الأب، ولا يمكن لهم تعلم لغة أبيهم وهو الوحيد الذي يتحدثها في القرية، لذلك يكون انتماؤهم إلى قبائل أمهاتهم ولغاتها وثقافاتها. فهناك عدد كبير من الأسر في شمال السودان (من بلاد الجعليين مروراً ببلاد الشايقية حتى بلاد المحس) تأسست بهذه الطريقة.

(٢٥) رواها لكاتب المقال النقيب بلة أحمد عرابي، ٦٥ سنة ، قوات الشعب المسلحة، السلاح الطبي، بمنزله بقشلاق المدرعات، سبتمبر ١٩٩٨.

الآثار الاجتماعية الاقتصادية لرحلات الحج والهجرة في سودان وادي النيل:

يجب ألا ينظر إلى هذه الرحلات والهجرات من الغرب إلى الشرق عبر كل هذه القرون بمعزل عن مترتباتها، إذ ليس بالضرورة – ولا من المتوقع – أن كل من شدَّ الرحال إلى بيت الله الحرام أن يصل ويؤدي الفريضة. فالأعمال بالنيات، وكل من تحرك من دياره بقصد الحج سيظل منذ ذلك اليوم حاجاً حتى ولو انقطعت به السبل في الطريق ولم يتمكن من الوصول. كما وليس كل من أدى الحج أن يكون بالضرورة قد عاد إلى دياره. والأمر نفسه ينطبق على الهجرة. فقد أتاح هذا الحراك السكاني عبر القرون فرصة طيبة لالتقاء الثقافات وتلاقح الأفكار وتبادل التجارب وتمازج الأعراق وذوبان بعضها في بعض.

إن أهم ما ترتب على رحلات الحج عبر سودان وادي النيل الإضافة إلى خارطة السودان السكانية عناصر بشرية جديدة جاءت بلغاتها وثقافاتها وقيمها وأعرافها، ويعتبر البرنو (الكانوري) والفولاني والهوسا والبرقو (المبا) من أقدم تلك العناصر. وقد اندمج أفراد الهجرات القديمة منهم في مجتمعات غرب السودان ووسطه وشماله، العربية منها وغير العربية. وبالتزاوج والتمازج انصهروا بمرور الزمن ثقافياً ولغوياً، واحتلوا موقعهم في النسيج السكاني للمناطق التي استقروا بها، وأخذوا يعرفون بقبائل أخوالهم (تعايشة، وجعليين، وشايقية، ورباطاب...إلخ)، وقلَّ منهم من عاد يذكر جذوره غرب الإفريقية. وبما أن معظم هؤلاء سلالة علماء وبيوتات دينية فقد نبغ البعض من أبنائهم وأحفادهم في العلم وأسهموا في الحركة الوطنية وشاركوا في بناء سودان ما بعد الاستعمار، قادة سياسيين وعسكريين وأكاديميين وقانونيين وتكنوقراط، وما زالوا على ذلك إلى يومنا هذا.

وكذلك أسهمت الهجرات ذات الصبغة المهدوية في إرساء قواعد دولة المهدية باعتبار أن أفرادها أكثر استيعاباً للفكر المهدوي وتشبعاً به، والذي تبلور من خلال

كتابات الشيخ عثمان بن فودي وأبنائه وتلامذته في ذلك.[٢٦] ويذكر محمد أحمد الحاج أن كثيراً من الكتابات والأفكار حول المهدية وجدت طريقها (من غرب إفريقيا) إلى بلاد السودان الشرقي من خلال رحلات الحج، وشاركت في خلق وتعبئة الجو الفكري الذي أدى إلى قيام الحركة المهدية.[٢٧] وحين وفاة الإمام المهدي كان الفكي محمد الداداري الفلاتي بمثابة الأب الروحي للحركة المهدية في السودان، وقد تمكَّن من خلال هذه المكانة من حسم مسألة الخلافة. فقد أورد يوسف ميخائيل (من الأقباط) في مذكراته أنه بعد مواراة جثمان الإمام المهدي الثرى رأى الأشراف أن تؤول خلافته إلى السيد محمد شريف، خليفة الكرار، ولكن بقية الحاضرين خالفوهم في ذلك قائلين إن الخلافة ينبغي أن تؤول لخليفة الصديق عبدالله بن السيد محمد، حسب ترتيب الخلافة (المحمدية)، وقد قال المهدي: "الخليفة عبدالله خليفتي، هو مني وأنا منه، تابعوه في كل أمر". وبدأ الناس يتجادلون، والخليفة عبدالله لا يتكلم، بل كان ينظر ويسمع. وهنا نهض الفكي الداداري وأخذ الخليفة عبدالله التعايشي من يده قائلاً: "نبايعك يا خليفة المهدي"، ومن ثم بايعه أقرباء المهدي.[٢٨] فلولا حكمة الفكي الداداري ونفاذ كلمته لرفع الأنصار السيوف في وجه بعضهم البعض.[٢٩]

(٢٦) بلغ جملة ما وقفنا عليه منها ١٠ كتب مختلفة الأحجام، و٩ قصائد باللغة الفولانية، وقصيدة بلغة الهوسا، ورسالتين. انظر الأمين أبومنقة محمد (١٩٩٦) "الآثار العقائدية لحركة الشيخ عثمان بن فودي على سودان وادي النيل"، الشيخ عثمان دان فودى، تحرير عمر محمد سعيد وعبدالقيوم عبدالحليم، الخرطوم، دار جامعة إفريقيا العالمية للنشر.

(٢٧) M.A. Alhaj (1973) The Mahdist Movement in Northern Nigeria, (Ph.D. thesis), Ahmadu Bello University, Zaria (unpubl.).

(٢٨) انظر Salih Muhammad Nur (1963) A Critical Edition of the Memoirs of Yusif Mikha'il, Ph.D. thesis, University of London.

(٢٩) انظر J. Hunwick et al. (1997) "Between Niger and Nile: New light on the Fulani Mahdist Muhammad Al-Dadari", *Sudanic Africa*, vol. 8.

وعند سقوط قلعة الأنصار في برمي (نيجيريا) عام ١٩٠٣ نقل المتحمسون منهم نشاطهم إلى داخل السودان وانضموا إلى إخوانهم في الجزيرة أبا والسريو وصابون قلاديما فبدأت بهم حركات مقاومة الأنصار للاستعمار[٣٠] Militant Mahdism (عطبرة ١٩١٤، غدير ١٩١٥، حلفا ١٩١٦، كسلا ١٩١٩، ونيالا ١٩٢١)،[٣١] قادة لبعضها، مثل حركة سمبو–سمبو في كسلا (١٩١٩)، ومشاركين فاعلين في بعضها الآخر، مثل حركة السحيني في نيالا (١٩٢١).

أما الرحلات والهجرات المتأخرة نسبياً (أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين) فقد غذَّت المجتمعات السودانية بمجموعات سكانية تنحدر من قبائل ذات وزن ديمغرافي وتاريخي على مستوى إقليم غرب إفريقيا، منها الفولاني والهوسا والكانوري (البرنو)[٣٢] والصنغي والمبا (البرقو)، وكلها قبائل لعبت دوراً مهماً في نشر الإسلام وتطور الحركة العلمية في ذلك الإقليم. وجلّ أبناء وأحفاد هؤلاء المهاجرين مازالوا محتفظين بلغاتهم وبعض عاداتهم غرب الإفريقية، وهذه اللغات لا تقف عند حد إثراء الخارطة اللغوية السودانية فحسب،[٣٣] بل يشكل المتحدثون

(٣٠) M. Duffield (1981) *Maiurno: Capitalism and Rural Life in Sudan*. London: Ithaca Press, p. 18.

(٣١) لمزيد من التفاصيل حول هذا الأمر انظر G.L. Lethem (1927) "Report on a journey from Bornu, Nigeria, to the Anglo-Egyptian Sudan, Jeddah and Cairo", in *History of Political Propaganda in Nigeria*, ed. by G.J.F. Tomlinson & G.L. Lethem. London: Waterloo & Sons Ltd.

(٣٢) تجدر الإشارة إلى أن هجرات البرنو القديمة قد ترجع إلى عهد مملكة الفونج، إذ ورد ذكر "دار برنو" في عدد من المواضع في كتاب طبقات ود ضيف الله الذي يؤرخ لتلك الحقبة من تاريخ السودان.

(٣٣) وفقاً للإحصاء السكاني لعام ١٩٥٦ تأتي اللغتان الفولانية والهوسية في المرتبتين السابعة والحادية عشرة على التوالي من حيث عدد المتحدثين، علماً بأن عدد لغات السودان في ذلك الإحصاء كان ١١٣ لغة. انظر S.H. Hurreiz & H. Bell (1975) *Directions in Sudanese Linguistics and Folklore*. Khartoum: Khartoum University Press.

بها جسراً للتواصل بين السودان ومعظم الرقعة الجغرافية الواقعة إلى الغرب منه (تشاد، ونيجيريا، والنيجر، والكمرون، وبوركينا فاسو، ومالي، وغينيا، والسنغال). ومن نتائج هذه الرحلات والهجرات أن أضحت كل هذه الرقعة الجغرافية منطقة تجانس فكري وعقدي يربط بينها المذهب المالكي ونظم الخلاوي القرآنية والفكر المهدوي والطرق الصوفية، لا سيما الطريقة التجانية، والتي ممن أسهم في نشرها في السودان مريدو كل من ألفا هاشم وعمر قمبو (ت ١٩١٨)[٣٤] والشريف إبراهيم صالح النووي. ففي طول هذه المنطقة وعرضها يتنقل المريدون إلى مشائخهم للزيارة والتبرك دون اعتبار للحدود السياسية أو الفوارق القبلية وكأنهم في دولة واحدة. وكذلك لأتباع الطريقة القادرية من جماعة الشيخ عثمان بن فودي في مايرنو روابط ود وإخاء مع مشائخ الطريقة القادرية في طيبة الشيخ عبدالباقي والشكينيبة تنعكس في تبادل الزيارات لإقامة ليالي الذكر في الأعياد والمناسبات الدينية الأخرى، كما أن هناك وشائج وروابط قوية تقوم بين جماعة الطريقة السمانية (متفرعة من الطريقة القادرية) من آل الشيخ قريب الله بأم درمان وبين جماعة المرحوم الشيخ ناصر كبرا، الشيخ السابق للسجادة القادرية في كنو.[٣٥] وتتمثل مظاهر قوة الصلة بين هاتين الجماعتين في تكرار الزيارات بينهما، والحفاوة والتقدير اللذين تجدهما كل جماعة لدى الأخرى.

وكذلك ساهمت العناصر السكانية ذات الجذور غرب الإفريقية في إرساء دعائم الاقتصاد السوداني الحديث في السودان، والذي تقرر أن يقوم على الزراعة بدلاً عن

(٣٤) Y.F. Hasan (1993) "Some aspects of the relationships between Central and Eastern Bilad Al-Sudan", *Dirasat Ifriqiyya* 10, p. 183.

(٣٥) الشيخ الحالي للسجادة القادرية في كنو هو الشيخ قريب الله بن الشيخ ناصر كبرا، وقد سُمي على الشيخ قريب الله السوداني الذي أخذ منه الشيخ ناصر كبرا الطريقة.

الرعي. فهناك عدد وافر من الوثائق التي تؤكد أن قيام مشروع الجزيرة (١٩٢٥)، وهو أضخم مشروع زراعي في إفريقيا، اعتمد على العمالة التي وفَّرها هؤلاء المهاجرون. ففي إحدى هذه الوثائق كتب مدير مركز مكوار (سنار) إلى حاكم مديرية النيل الأزرق: "... لابد من التأكد من وجود مصدر للعمالة لمقابلة الحاجة الملحة منها في مشروع الجزيرة، واعتقد أن الفلاتة يشكلون أقيم مصدر لهذه العمالة".[٣٦] وإلى جانب عملهم في تشييد خزان سنار، فقد تم تهجير عدد من الأسر من مايرنو إلى الجزيرة ووزعت لأفرادها المزارع (الحواشات) ليستفيد أهل الجزيرة – الرعاة أصلاً – من خبرتهم في الزراعة. وفي نفس هذا السياق أفاد ماكلوفلين أن السودانيين ذوي الأصول غرب الإفريقية يتركزون في كبرى مناطق الإنتاج (الجزيرة، والقاش–طوكر)، وهناك "يشكِّلون أنشط عناصر القوى العاملة ويسهمون بقدر أكبر مما يتلقونه عائداً في المحصول والأجر".[٣٧] هذا إلى جانب وجودهم بمناطق إنتاج القطن في جبال النوبة ومشروع الزيداب بولاية نهر النيل. وقد ظل مشروع الجزيرة لعهد قريب يعتمد على عمالة الحجاج العابرين أو الذين اضطروا إلى الاستقرار النهائي.[٣٨]

أما خارج التخطيط الزراعي الحكومي، فقد رأينا فيما تقدم أن الذين استقروا في السودان من الحجاج والمهاجرين ينتشرون اليوم على امتداد ضفاف الأنهار وما يليها من الأراضي الزراعية. وتجدر الإشارة إلى أن من سياسة الإدارة البريطانية

(٣٦) الوثيقة رقم CRO, BNP, 1/25/175 ، دار الوثائق القومية، الخرطوم.

(٣٧) P.F.M. McLoughlin (1964) *Language-Switching as an Index of Socialization in the Republic of the Sudan*. Berkeley, p. 56.

(٣٨) انظر C.B. Yamba (1995) *Permanent Pilgrims: The Role of Pilgrimage in the Lives of West African Muslims in Sudan*. London: Edinburgh University Press.

في السودان تشجيع مثل هذا الانتشار للنهوض بالزراعة بدلاً عن الاكتفاء بالرعي الذي لأسباب اجتماعية لم يكن في ذلك الحين ذا جدوى اقتصادية. ففي كل هذه المناطق تمكَّن هؤلاء – إلى جانب الزراعة المطرية – من إقامة بساتين على ضفاف الأنهار لإنتاج الفاكهة والخضر، إضافة إلى صيد الأسماك، لمقابلة الحاجة المحلية، بل والتصدير إلى العاصمة القومية.

خاتمة:

لقد رأينا فيما تقدم أن لقصد البيت الحرام عند مسلمي غرب إفريقيا، إلى جانب أداء الفريضة، دوافع متعددة: شخصية، وأيدلوجية، وروحية، وسياسية، وعقائدية، وغيرها. كما رأينا أن مفهوم "الحج بمشقة" وطول الطريق مع وعورته كل ذلك كان ينتهي ببعض الحجاج إلى الاستقرار الدائم في الطريق – في سودان وادي النيل على وجه الخصوص. وكذلك استقرت به معظم الهجرات ذات الصبغة المهدوية، رغم أن مقصدها كانت الأراضي المقدسة. وبمرور الزمن انصهرت أعداد كبيرة من هؤلاء الحجاج والمهاجرين في المجتمعات السودانية الأخرى وشكلت معها النسيج السكاني الذي نراه اليوم. وقد أسهمت هذه المجموعات القادمة من مختلف أقاليم غرب إفريقيا في إثراء الخريطة اللغوية السودانية بكبرى لغات الأمم الإسلامية في إفريقيا، كما أسهمت في تطوير الاقتصاد السوداني الحديث المتمثل في الزراعة. وقد تفاعلت مع المجتمعات العربية والمحلية سياسياً وفكرياً وثقافياً لتخلق من سودان اليوم مع البلاد الواقعة إلى الغرب منه أكبر منطقة للتجانس الفكري والعقدي والعرقي في إفريقيا، وبفضل ذلك أصبح السودان أنموذجاً مصغراً لإقليم غرب إفريقيا الواسع.

إذا كانت مصر هبة النيل، فإن السودان "هبة الجغرافيا" (أي الموقع الجغرافي). فمن حكمته سبحانه وتعالى أن جعل التوجه إلى بيته الحرام لأداء واحد من أركان

الإسلام – ولعله الأصعب – سبباً مكملاً لهذا التميُّز الفريد الذي يتمتع به السودان في القارة الإفريقية، والذي يؤهله لقيادة هذه القارة إذا ما صلح حاله. ولما كانت الألفية الثالثة هي ألفية التكتُّلات الإقليمية، فها هو سودان اليوم قد توفرت فيه كثير من العناصر المعينة في تكتل أقاليم وسط إفريقيا وغربها (الساحل والصحراء)، وهذا بالتالي يمثل نواة للتكتُّل القاري الذي بدأ ينادي به بعض القيادات الإفريقية.